# مـن أنـــا..

## من أنا..

في ذاك الصباح وقبل ذهابي إلى النادي الرياضي حيث أزاول رياضتي الشبه يومية هناك، وقبل التوجه إلى عوار الراس وأقصد العمل - مع أني متقاعد من الوظيفة بعد ٢٣ عاماً من العمل المصرفي وأعمل حالياً في العقار والمجوهرات مع تكريس جل اهتمامي ووقتي للعمل الخيري من خلال الثلث الخيري لوالدي عبدالله العثمان رحمه الله ووصيته الجبارة - مسكت الجرايد ولفت نظري الحدث الجميل المتمثل بتكريم منظمة الأمم المتحدة حضرة صاحب السمو أمير البلاد المفدى قائداً للعمل الإنساني. والصراحة انتابني شعورٌ غريب واختلطت الأفكار بالمشاعر، فمنذ سنوات وأنا بشغلٍ شاغل في تحليل ودراسة سجلات والدي واللي ما لها أول من آخر، سجلات مليئة بصدقات وزكوات وأشعار تشدو بالعمل الخيري والمحبة والعطاء تدمع لها العين، أرشيفٌ من سجلات وتراث ضخم كاد أن يضيع لولا أن سخرني الله لحفظها ونشرها.

هذا الخبر فجّر طاقة إيجابية كامنة داخلي وما عرفت أكمل قراءة تلك الصحف، ولم تلمس يدي قطعة الخبز أمامي، وظل كوب القهوة حافظاً لما به، فقصدت النادي وراسي يلف ويدور. وبينما أنا على جهاز الإلبتكال والذي عادةً ما أستخدمه متى ما كان بالي مشغولاً لأنه لا يتطلب مني أي تركيز، فإذ بهاتفي يرن والصديق أحمد شمس الدين - الكاتب في جريدة القبس - هو المتصل، وقال لي: شفيك متدوده؟ فقلت له: «بوخالد، خبر تكريم صاحب السمو أمير البلاد قائداً للإنسانية ما هو إلا رأس جبل الجليد ، فتاريخ صاحب السمو وأهل الكويت في العمل الخيري ضارب في القدم، لكن للأسف بدأ يضيع كما كادت سجلات والدي أن تضيع. وإنّ من مسؤولية الأبناء المحافظة على إرثنا ونشر تراثنا الخيري الذي نفتخر به في الكويت، فجاء رده لي: «ليش ما تبلش إنت وتبدأ تكتب؟» رديت عليه: «لكن ما سبق لي الكتابة في الصحف.» فقال لي: «إكتب وابعثه لي على الإيميل وإذا كان مناسب

الجريدة ستنشره، وإذا ما كان مناسب انسى الكتابة.» وفعلاً هذا ما فعلت، فكان مقالي الأول (وصايا لا تموت). ومنذ ذاك التاريخ أضحيت كاتب مقال، وسيعجَب القارئ بما سوف أشركه معي ببضع من ذكرياتي في رحله حياة امتزج فيها الفرح تارة وبالحزن تارةً أخرى، مثلي مثل أي إنسان على هذه الارض، فلكلٍّ منا تجربته التي تختلف عن الآخرين مثل اختلاف بصمات إبهامنا.

أنا من مواليد عام ١٩٥٧ من شهر يناير، ولدت في منزل والدي في النقرة والذي أضحى متحفاً يحمل اسمه، ووالدتي هي الزوجة الثالثة من الزوجات الأربع اللواتي كنّ على ذمة والدي لدى وفاته عام ١٩٦٥. ودائماً ما أُسأل عن عدد زوجاته فأجيب ست زوجات أنجبن له أبناء. وحسب معرفتي المحدودة، فقد كانت له زوجة توفيت من غير أبناء، وأخرى لبنانية لم يستمر زواجهما أشهر، وربما كان له زوجات أخريات لم أعلم بهن. ولا أعلم كذلك ما هو ترتيبي بالضبط من بين إخوتي وأخواتي البالغ عددهم ٣٦، لكني عمرياً في الوسط، وفي الترتيب الثالث بين أشقائي الست، والأخ الأكبر بينهم. وكما أسلفت، فقد توفي والدي وأنا لم أتجاوز بعد الثمان سنوات، ومن بعد جماعةٍ وعزّة أضحينا شتاتاً تتلاطم بنا أمواج الطمع والجشع فما عرفنا من هو الصاحب ومن هو العدو. وهذا هو طعم اليتم، فهو مرٌّ في ذاته وإن تفاوت في الحال. وقد يقول قائل يتيمٌ ثري خيرٌ من فقير، أما أنا فأقول العكس، فما يزيد من بؤس اليتيم الغني تكالب من لا يخاف الله من الناس على ما يملك، وابتعاد أخيار الناس عنه نأياً لأنفسهم عن الشبهات. هي معادلة يصعب شرحها وأنا لا أود هنا الإطالة فيما هو مغم، فأنا بطبعي أحب سوالف البهجة والأمل وما هو مفيد، لكن إيصال الحكمة تتطلب أحياناً شوية ضيقة خلق كما يقال لأخذ العبر.

أبدأ بسالفة لي وأنا في الرابعة من عمري حين التحقت بمدرسة الفارابي الابتدائية وهي لا تبعد عن منزلنا بأكثر من مئتين متر. وكان لنا أيام الوالد رحمه الله نظاماً غريباً يجب علينا اتباعه. فنحن ننتظر السائق حتى يوصلنا المدرسة

ومن ثم يعود بنا، وأحياناً يتأخر السائق فنذهب إلى البيت ونضع شنطنا هناك ثم نرجع المدرسة عند البقالة المقابلة نلهو بالشارع إلى حين وصول السائق. طبعاً ما كنّا فاهمين السبب من هذي السياسة بس بعدين عرفنا أن السائق يقدم للوالد تقرير كامل عن وصول أبناءه المدرسة ورجوعهم المنزل مكتملي العدد. وهكذا يتسنى للوالد أن يعاقب أو يسأل عن ابنه المتخلف عن المدرسة، وطبعاً العقاب من جنس الجريمة، فمن التوبيخ إلى قرص الأذن إلى الجحيشه. ووالدي رحمه الله ورغم كثرة أبنائه وعظم مشاغله فقد كان ذا فطنة وقدرة فائقة على المتابعة يعجز اللسان عن وصفها، وبقدر شدّته تجد لينه وعطفه ورقة قلبه. وأذكر مرةً صدف أن رآني في البيت في يوم مدرسي فعاقبني دون سؤال عن السبب، وبعد ساعة عاد إلى المنزل ليسأل عن سبب تغيبي وحين عرف بمرضي كافأني رحمه الله بمبلغ مجز، إذ صعب عليه إكمال يومه وفي قلبه شك من تصرف قد أتى قاسياً وليس في محله. تلك هي الصفة الجميلة التي لم يسعفني الوقت لأعيشها معه أكثر حال حياته، لكني عشتها معه من خلال أشعاره ومدوناته وسجلاته التي حافظت عليها طوال تلك السنين. ونعود إلى دخولي الابتدائية والتي دخلتها دون التحاقي بالروضة لسبب أجهله، بينما إخوتي الأصغر مني سناً حظوا بتلك التجربة.

في الابتدائية عانيت معاناة كبيرة مع اللغة العربية إذ كان يصعب عليّ الكتابة والقراءة، ولكني تفوقت في الحساب وقضيت ستة أعوام في الابتدائي إلى وصولي السنة الثالثة ابتدائي وأنا لا زلت عاجزاً عن الكتابة والقراءة رغم كل محاولات والدتي المستميتة. وأذكر موقفاً أثر بي كثيراً وقع آخر سنة دراسية قبيل وفاة والدي، ففي بيت والدتي تحلق حول والدي لفيفٌ من أبنائه وفي يد كل واحد منهم شهادته، فأخذ يكافئ كل ابن ناجح بعشرة دنانير، وللأسف الكل كان ناجحاً إلا كاتبكم، ولا تزال كلماته محفورةً في ذاكرتي « انت راسب ومالك شي عندي»، لكن تدخلت أختي الأديبة ليلى العثمان وطلبت منه مسامحتي هذه المرة فناولني عشرة دنانير، لكني تمنيت لو لم يعطني اياها فهي هديةٌ غير مستحقة. ومنذ

ذاك التاريخ لم أعرف طعم الرسوب أو الفشل بسبب ما شعرت به حينها من ألم. وكان والدي رحمه الله معتاداً على قضاء الصيف في ربوع لبنان فكانت له تجارته هناك ومساجد وصحبة، وكان يُستقبل حال وصوله مطار لبنان استقبال الرؤساء. واعتاد تقسيم رحلة أسرته وحاشيته إلى مجموعتين، وأذكر حجزه الطائرة بأكملها ذات المحركات المروحية، لتأخذ الرحلة خمس ساعات تقريباً. وفي تلك السنة قرر والدي إلحاق كافة أبنائه في مدرسةٍ صيفية هناك كانت تحمل اسمه إذ سبق له التبرع ببنائها، وكان عددنا يفوق العشر أولاد. لكن لم أستفد من الدراسة هناك وذلك لسبب بسيط، فقد ترافقنا مع كم طالب كويتي هناك وسرعان ما تحولنا إلى عصابة من الأشقياء نحتمي باسم والدنا. وحين ضاق بنا ذرعاً ناظر المدرسة، وأذكر اسمه إلى الآن، -خير الله-، اشتكى علينا لدى والدي مما حدا به إلى إخراجنا من المدرسة وإيقاع أشد العقاب علينا من ضرب بالجحيشه لمن هم أكبر سناً منا. لكن لم يخف أحدنا مدى السعادة والوقت الجميل الذي قضيناه في تلك المدرسة المختلطة، فلم نتخيل يوماً الجلوس في صف به فتيات أو تعلمنا امرأة جميلة، فكما يقال بالعامية فيوزاتنا احترقت!! ومن بعد تلك المدرسة اللبنانية عدنا إلى الكويت وأعدت سنة ثالثة ابتدائي، لكن الجديد هنا هو وفاة والدي في منتصف العام الدراسي وتزامن ذلك مع تغيير مدرس العربي، فذهب أستاذ نعيم وحلّ محله أستاذ عيسى، وشتان الفرق ما بينهما: فالأول شديد ولا يبتسم، والآخر أقل ما يقال عنه حبيب ولطيف. ولاحظ أستاذ عيسى بفطنته مشكلتي في القراءة والكتابة فأولاني عناية خاصة تلازمت مع عناية والدتي وحرصها بأن أكرر نسخ كتاب القراءة بالكامل ولو كان رسماً ونقلاً. وبفضل أدائي تلك التمارين وتولعي آنذاك بمجلات سوبرمان والوطواط وسمير وميكي استطعت كسر حاجز صعوبة القراءة والكتابة. ودعونا هنا نقف للحظات لنستلهم الحكمة من تجربتي الشخصية إذ أنصح كل أولياء الأمور لدى ملاحظة تعثر أبنائهم في مادة ما بعدم الضغط عليهم، فالشدة لا تؤتي أكلها، وعليهم عوضاً عن الضغط ملاحظة مثلث

الحل: الضلع الأول هو المدرس: فهناك نوع من الاطفال تفوقهم مبني على قدر تقبلهم لمدرسهم فإذا أحبوه استوعبوا، وإن لم يتقبلوه فخلاص الاستيعاب يوقف. الضلع الثاني هو خلق الدافع الإيجابي والتشجيع والابتعاد عن استعمال مفردات مثل «انت ماتفهم» أو «يا حمار» أو غيرها من المفردات المشابهة. أما الضلع الثالث فهو التكرار الغير ممل. فالتكرار يعلم الشطّار وما أدل على ذلك من كاتبكم، فبعد ست سنوات من التعثر الدراسي أصبحت كاتباً لا بل مؤلفاً. ولاحظوا أن الطفل لا ينسى والأيام تدور. فأذكر في أوائل التسعينيات من القرن الماضي وإبان عملي في المصرف إذ يدخل عليّ رجلٌ مسن فلسطيني الجنسية وسألني بعد السلام: تذكرني يا ابني؟ ففوراً قلت: نعم أستاذ نعيم. سعد صاحبنا وقال ما شاء الله ذاكرتك كويسة. فرديت عليه وقلت: لا على العكس، فبقدر ما كنا نكرهك لا يمكن لنا أن ننساك. فضحك أستاذي وقال: عندي حاجه وأنا رجل مسن. فقلت له: أنت أستاذي وزيارتك لي عزيزة وطلبك مجاب، لكن بلغني شنو أخبار أستاذ عيسى؟ فقال: رحمه الله. فقلت له : تمنيت رؤيته لو مرة واحدة فقط لأقول له شكراً جزيلا فقد كان نعم المدرس. ضحك صاحبنا وقال: فيك الخير. ذهب أستاذ نعيم ولم أره بعد ذاك التاريخ. وأعود بسالفتي إلى سنة رابع ابتدائي وعمري لايتجاوز ٩ سنوات وكل شيء كان قد تغير. فبعد وفاة والدي انقلب الحال وتشتت جمع الأسرة واندلع النزاع، ووجدت نفسي في تلك السن الصغيرة مسؤولاً عن والدتي وأشقائي الخمس. وهكذا عشت طفولة غريبة عقّد من يومياتها خلافات والدتي مع خالي والذي كان يفترض به أن يكون وليّ أمري، لكني وقفت نداً قوياً له. فأصبحت المسؤول عن تلبية طلبات والدتي المنزلية، ولاحظوا أنني أتكلم عن عام ١٩٦٦، يعني ما كان فيه شي اسمه جمعية تعاونية، وكذلك لم يكن لدينا تلفون إذ استغرق طلب التلفون في ذاك التاريخ أشهر إن لم يكن أعوام. وتحول بيتنا العامر في النقرة إلى بيتٍ موحش جداً خصوصاً بعد خروج زوجات والدي وأبنائهم إلى منازل جديدة، فنحن آخر أسرة تغادر بيت النقرة. وفي أيامنا الأخيرة هناك

تحول البيت إلى بيت أشباح خصوصاً لدى مغيب الشمس إذ كنا نسمع أصوات الرياح وهي تعصف في الأبواب والشبابيك الغير محكمة الإغلاق. وكان من ضمن واجباتي آنذاك شراء ماجلة البيت (المؤونة) من سوق المباركية، وكان من الممكن القيام بالمهمة عصراً بعد عودتي من المدرسة، لكن المشكلة كانت في شراء السمك إذ يجب الذهاب للسوق قبل دوام المدرسة مع السائق لشراء الطازج من الأسماك ومن ثم العودة إلى المنزل، ثم عليّ بعدها إيصال أشقائي لمدارسهم لأن الوالدة ما تأمن تخلي البنات مع السائق. وهكذا تبدأ رحلتي الصباحية: أولاً إلى مدرسة الفارابي، مدرستي القريبة من المنزل، لإيصال أخي هناك، ومن ثم أذهب إلى مدرسة باحثة البادية الابتدائية لإيصال أختي الصغيرة، ومن ثم إلى روضة بن خلدون في شارع تونس، ومن ثم إلى مدرسة الفيحاء ومنها إلى ثانوية الجزائر في الشامية، ثم أعود إلى مدرستي الفارابي، طبعاً أكيد متأخر على الطابور، وألاقي الناظر مع عصاه يعاقب الطلبة المتأخرين. استمر هذا المسلسل لأعوام، لكن كما يقال الحاجة أم الاختراع، فتعلمت الجلادة التي لا تخلو من الحيلة. وتلك بضعٌ من ذكريات أشرك قارئنا الكريم بها من وقتٍ إلى آخر قاصداً الحكمة والعظة وأهمها أن يحمد الإنسان ربه على ما عطاه، فالسعادة والنعيم ما هما إلا في قلب كلمة «الحمدلله» ولا يمكن تذوقها دون كأس القناعة، والصعاب تصقل الرجال.

وحتى لا أزيد من الفلسفة أعود إلى صديق رحلتي الهادئ المسالم كتابي العزيز، فما إن أجدت القراءة لم يفارقني الكتاب إلى حين سفري للدراسة في أمريكا، فتركت خلفي مكتبة يزيد عددها عن ٣٠٠ كتاب جمعتها على مدى ١٢ عام تضم كتباً متنوعة من مجلدات ميكي وسوبرمان إلى مؤلفات طه حسين ويوسف السباعي وإحسان عبدالقدوس، عدا المترجمات الجميلة كبائعة الخبز لكازفيه دو مونتبان، وذهب مع الريح للكاتبة مارغريت ميتشل، والأفق المفقود للكاتب جيمس هيلتون، وكذلك مجموعة الكتب الدينية التي ورثتها عن والدي رحمه الله. لكن وللأسف فقدت تلك المكتبة في غفلة زمنٍ فقد بها عموم الناس بوصلة الحكمة من اقتناء

الكتب، وما تبقى لي إلا القليل منها. فاحتفظت بما تبقى لنفسي، ومازلت أحمل في قلبي حزناً عميقاً لفقدها. ولم يقف قطار القراءة معي بل أخذ منحىً آخر. فعملي في قطاع النفط فرض عليّ قراءة ما يخص هذا القطاع، والتحاقي بعمل المصارف فرض علي دراسة أسس المحاسبة والأزمات المالية التي عصفت بالكويت. ومعالجة المديونيات الصعبة فرضت عليّ دراسة القانون، وصراعي الطويل مع الهيئة العامة لشؤون القصر -الوصية على ثلث والدي- فرض عليّ دراسة وتمعن علم الأوقاف والقضايا الشرعية، عدا ولعي بكتب الهندسة المعمارية الإسلامية في بلاد المغرب العربي واسبانيا. وبدأت أبني مكتبتي الجديدة من كتب الهندسة والمحاسبة والشرع والأوقاف والتشريعات القانونية إلى أن وصلت حد التشبع. مؤخراً، وكما الهوى، أخذني الحنين مرةً أخرى للقراءة الأدبية والتاريخية، فقرأت معظم كتب الدكتور العراقي علي الوردي وكتب الكاتبة التركية أليف شافاك وكتب يوسف زيدان وما كتب عن تاريخ التصوف والصوفية في الإسلام وأعود للحكمة مما سردت والتي تنحصر في نصيحة من القلب: العودة إلى القراءة وترسيخ حب القراءة في أبنائنا. فالقراءة فن وبحث وتمعن، ومن لايقرأ يسهل قيادته وتوجيهه إلى أفكار قد يشوبها التطرف. ولأدل على ذلك فقد زارني صديق متدين ولاحظ وجود كلب في باحة منزلي فقال: الكلب نجس ولا تدخل الملائكة منزل به كلب، فأجبته بسؤال عن مذهبه، فأجاب: أنا على مذهب مالك، ومذهب مالك هو المذهب المعتمد كمرجع شرعي في دولة الكويت. فقلت له: إذاً لا مشكلة لك مع الكلب، فاستغرب صاحبنا وقال: شلون! فأجبته أن الكلب ليس بنجس وحاله حال القط فارجع إلى ما قاله مالك في نجاسة الكلب وبعدين كلمني. وطبعا بثوانٍ وببحث بسيط من خلال غوغل قرأ خلاف المذاهب وقرأ رأي مالك بذات الموضوع. فالمشكلة إذاً إن صاحبنا المتدين يسمع ولا يقرأ، والمذاهب بحر عميق. فضحك صاحبنا وقال صدقت نحن لا نقرأ، ولذلك ترانا نقاد كقطيع الغنم فنهاجم الغير ونختلف معهم، بل ونقاد إلى قتالهم من دون علم. لذا أكرر النصيحة القراءة ثم القراءة. وأضيف علينا أن نقرأ

للرأي الآخر ومن اختلف معنا فكرياً أو سياسياً أو حتى مذهبياً، وإلا لا طبنا ولا غدا الشر.

وقد تعلمت من سيرة والدي رحمه الله تقبل الآخرين سواء فكرياً أو عقائدياً مع احتفاظي بمبدأ الوسطية في الحياة.وهذا المبدأ ليس بوليد اليوم بل تشكل بوضوح لدى دراستي في الولايات المتحدة في أواسط السبعينيات. فكانت أول تجربة لنا لدى التحاقنا بجامعة جنوب إلينيوي، وتقع في قرية صغيرة تدعى كاربندیل، وكنا خمسة كويتيين مبتعثين هناك لدراسة اللغة. وأذكر كنا في أحد المطاعم ووجدنا طلبة عرب بجانبنا فعرفوا عن أنفسهم وأخذوا يعطونا المواعظ عن القومية العربية وقضية فلسطين واتحاد الطلبة العرب، وأخيراً طلبوا منا المال للمساهمة في قضية العرب، والصراحة كنا مفلسين وقلت لهم فلوسنا يالله تكفي عشانا، ولما شافوا ماكو فايدة طلبوا أن ندفع فاتورة عشاهم، وهذا كان أول إحباط. ومع الوقت تعرفنا على طلبة خليجيين ومعهم رأينا تناقض جديد علينا، فهم بالطيبة والكرم ماكو عليهم بس مشكلة بعضهم انحرافهم السريع اتجاه المشروب والمخدرات مع التزامهم الكامل بالصلاة جماعة. ولدى انتقالي إلى جامعة سيراكيوز في ولاية نيويورك كان لي المعرفة الأولى مع جماعة السلف وجماعة الاخوان. فهناك تصدر مجلة الهجرة وهي مجلة الطلبة الكويتيين سلفيي الهوى، بينما تصدر مجلة الأمل من مدينة ويستر ولاية ماساتشوستس وهي معقل الاخوان. وكانت المرة الأولى التي أعرف فيها نوع الصراع والخلاف بينهم، لكني نجحت بالحفاظ على علاقة متوازية مع الطرفين وكذلك مع الطلبة الشيعة. لكن الجماعة الوحيدة التي لم أتعامل معها فهم أهل المشروب والمخدرات وهؤلاء قلة. ومن باب ذكر مدينة ويستر فقد كان لجماعة الاخوان منزل يتشارك السكن فيه أكثر من عشرين طالب كويتي ويزيد العدد مع عطلة نهاية الأسبوع مع قدوم زوارهم من الطلبة الكويتين، وكانوا يسمونه ببيت الأرقم. وفي ذاك المنزل يدار ويغرس فكر الاخوان بين الطلبة الجدد، أما القدامى منهم أو كما يطلق عليهم بالقادة. فقد تولوا مسؤولية تقديم خدمات

عدة من أنشطة اجتماعية أو تسهيلات دراسية. والربع هناك كأنهم في الكويت، حتى دشاديش وشمغ يلبسون ويطلعون فيها للجامعات، منظر غريب بالفعل. وتجد النجباء منهم يدرسون في جامعات قوية، لكن الأغلبية العظمى تجدهم في معهد متواضع سيئ السمعة. يعني الطالب يسجل خمسة عشر مادة وما يحضر وينجح. وقادة بيت الأرقم آخر همهم التحصيل العلمي للطلبة بقدر المحافظة على أكبر حشد من الجموع ونشر الفكر الإخواني فيها. وفي الصيف يصبح المعهد قبلة لعشرات الطلبة الكويتيين ينهلون منه ما لذ وطاب من المواد الدراسية وبعلامات كاملة دون دراسة أو أي جهد. وكان الملحق الثقافي في ذلك الوقت يغض الطرف عنهم. المهم، قرّر الربع من صيف عام ١٩٧٨ شد الرحال إلى ويستر، وكل واحد عنده مادة مو قادر عليها قال آخذها هناك وافتك، وصادف وقوع شهر رمضان في ذاك الصيف. كنا أربع طلبة أجرنا شقة لمدة شهر، وأعتقد في ذاك الشهر وصل عدد الطلبة الكويتيين إلى ما يزيد عن المائة طالب ينتمون إلى تجمعاتهم المختلفة، والوضع صراحةً، وكما يقال في العامية، كان مصخره. أما محدثكم فكان يتفطر في بيت الأرقم ويصلي العشاء والتراويح عند السلف ويقضي الليل حتى الفجر مع الربع الليبرال نسهر على التلفزيون والموسيقى وأغاني أم كلثوم وعوض الدوخي، غير طبعاً لعب الكوت والهاند.

وبعد فترة سألني أحد قادة بيت الأرقم وقال لي: عدنان ما نشوفك تصلي معانا التراويح ولا تشارك معنا أمسياتنا وأنشطتنا الاجتماعية، فرديت عليه وشاركته بكل صراحة جدولي اليومي. وطبعاً استغرب وقال لي: ليش؟ فأجبته: يا صديقي رفقتكم طيبة ومجلسكم عامر، لكن أفضل الصلاة عند جماعة السلف فهم أكثر خشوعاً وقارئهم أعذب صوتاً، لكن بعد الصلاة ما لي مكان عندهم فليس من طبعي التشدد، فأقضي ما تبقى من الليل مع ربعي محبي أم كلثوم وعوض الدوخي. ضحك صاحبنا وما زعل من صراحتي وما زلت أحتفظ بعلاقة طيبة معه. تلك السياسة التي اتبعتها وأنا طالب بقيت عليها إلى يومنا هذا، فأنا صديق

الإخوان ومحب للسلف وأخ للشيعة ومازلت أطرب لأم كلثوم وعوض الدوخي. وأعرض على القارئ هذه التجربة لإيصال حكمة بأن الوسطية وقبول الآخرين حتما ستدفع بالآخرين إلى تقبلك، والمفتاح هي الكلمة الطيبة وتجنب الجدل العقيم، فهناك متسع للجميع، وخلاف علماء الأمة رحمة. وأنصح المبتدئين ممن يرغب بالتفقه في علم الدين حسب المذاهب الأربع اقتناء وقراءة كتاب (فقه السنة) لمؤلفه (سيد سابق) فهو سهل القراءة ويعرض آراء الأئمة الأربع على معظم القواعد الشرعية، ولي قصة مع هذا الكتاب وآمل أن نأخذ منها حكمة. فبعد تخرجي والتحاقي بالعمل التقيت بصديق دراسة وعزمني على ديوانيته، وصدف أن هناك العديد من زملاء الدراسة، ويطغى على حضورها الاخوان المسلمون والمتمثلون في الكويت بجمعية الاصلاح الاجتماعي. الديوانية جداً لطيفة تضم شباب حديثي التخرج والتزمت بها كل يوم اثنين إلى إن دخل علينا صديق، وهو مهندس أيضاً خريج أمريكا وبدأ يصر على إعطاء رواد الديوانية دروس دينية. صاحبنا فرض نفسه وفرض دروسه علينا، وأنا شخصياً ما عجبني الحال لأني أعتقد بأن محاضرنا غير مؤهل لمثل هذا العمل، وخصوصا حين بدأ يفتي ويجاوب على أسئلة بعض الحضور، فوجهت له سؤال وقلت له: يا صديقي عندي سؤال شرعي محيرني تقدر تفتي لي فيه؟ طبعا صاحبنا مفتي زمانه أجاب وبكل عنفوان: حاضر اسأل. فكان سؤالي هو: هل البيرة حلال أم حرام؟ ووقع سؤالي عليه كصاعقة فجرت رأسه ففقد السيطرة وبدأ بمهاجمتي واتهامي بالسخرية من الدين، ومع أنه ليس بصاحب الديوانية إلا انه حاول طردي منها. أنا شخصياً لم تفارقني الابتسامة بل فرحت لتصرفه كي أثبت وجهة نظر. تدخل صاحب الديوانية فقلت له: عندك كتاب فقه السنة؟ فأجاب نعم، فطلبت منه إحضاره وسألت الحضور: هذا الكتاب تأليف (سيد سابق) والذي ألفه بناءً على طلب مؤسس ومرشد الإخوان في مصر حسن البنا، فهل توافقون عليه حكماً بيني وبين صديقنا المهندس؟ الكل وافق وأولهم هو، ففتحت الكتاب تحت فصل تحريم

الخمر وقرأت ما كتب وكما أن تعريف الخمر بلغة العرب هو ما عصر من العنب والتمر أما عدا ذلك فتسمى بالمسكرات، والمسكرات تحريمها بناء على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم والذي ذكر بأن ما أسكر كثيره فقليله حرام وأجمع علماء المسلمين على تحريم أي قليل يسكر كثيره إلا علماء العراق فقد ارتأوا أن التحريم بالسكر وليس بالمادة ومن هؤلاء العلماء أبي حنيفة (فقه السنة الجزء الأول صفحة ٢٥٣). المهم عطيتهم محاضرة بأنني لست من مؤيدي هذا الرأي لكن وددت أن أثبت لكم ولصديقنا المحاضر وجوب القراءة والاطلاع والابتعاد عن الإفتاء. وقلت لصاحبنا إذا لم تقرأ هذا الكتاب السهل والذي كتب بناء على طلب مرشدكم المؤسس، فكيف لك أن تحاضرنا بالدين وتأخذ على عاتقك الفتوى؟! وبلغت صاحب الديوانية إن كان يرغب بتعلم الدروس فعليه استضافة رجل دين على الأقل يعي ما يقول، وطبعاً كان هذا آخر حضور لي لتلك الديوانية. والحكمة التي أحاول إيصالها أن أساس بلاء الأمة فيمن يأخذ على عاتقه الإفتاء وهو غير مؤهل، أو فيمن تراه من المؤهلين لكن ممن يحملون توجهات حزبية وسياسية، وباسم الدين يوجهون الشباب إلى ما يخدم مصالحهم. وهذا تفسير منطقي لما نشهده اليوم من غلو ديني وإرهاب مغيض، فالشباب الذين يفجرون أنفسهم بين المصلين المسلمين بنية الشهادة ودخول الجنة، ستجد من خلفهم شيخ دين - أو كما يدعي بذلك - أفتى وأجاز لهم قتل المسلمين والفوز بحور العين. ونصيحة للشباب: الله عطاكم عقل فاستعملوه ولا تنقادوا كما تنقاد الخراف وراء الراعي، فدخول الجنة لا يتطلب صكوك الغفران من رجال دين مسيسين. وفي رحلة إلى المغرب برفقة ابنتي تسنت لي فرصة حضور إحدى حلقات الذكر وإن كان طابعها العام صوفي. ودخلت في حديث شيق مع دكتور جامعي عن الصوفية وجذورها في المغرب العربي وانحراف بعض أتباعها عن صحيح الشرع، وجاء جواب صاحبنا بسؤاله لي إذ قال: إن الفئات التي تقوم بالتفجيرات حول العالم، هي تتبع مذهباً، فهل لنا أن نعمم أفعالهم المجرمة على مذهبهم، فهؤلاء متطرفون منحرفون خرجوا من

رحم مذهبهم، وكذلك الحال مع الصوفية، فهناك من تطرف وخرج عن الطريق المستقيم. وأفاد بأن المذهب المتبع في المغرب هو المالكي وإجازة الإفتاء لا تمنح إلا بعد مراحل من العلم الشرعي ودراسة لغات العرب، فالقرآن نزل بلغة قريش، وإجازة الإفتاء هنا في المغرب العربي لا تتم بالسهولة التي لدى المشارقة. طبعاً هذا كان كلامه وأنا فقط مستمع، لكن تبقى الحقيقة أننا هنا في الكويت نحتاج إلى حصر الإفتاء فقط لدى لجنة الإفتاء التي تتبع وزارة الأوقاف، فهناك لجان إفتاء في كل المؤسسات الحكومية، أو الخاصة مثل البنوك الإسلامية، وقريباً سوف يفرض البنك المركزي التدقيق الشرعي على البنوك، ما يعني أن المؤسسات المالية سيتوجب عليها تعيين مكاتب تدقيق محاسبية خارجية للتدقيق على حساباتها، والآن مطلوب مكاتب شرعية خارجية للتدقيق على مدى التزام البنوك بأحكام الشريعة، يعني الإفتاء تحول إلى صناعة وتجارة، وهذا الأمر يتطلب تقنين ومراقبة من قبل وزارة الأوقاف وإلا تحولت تلك الصناعة إلى تجارة من لا تجارة له.

قبل أيام وصلتني رسالة على الواتساب من أحد الأصدقاء تقول: «ما التقيت شخصاً قوياً على الاطلاق وكان ماضيه سهل». أعجبتني تلك المقولة، ولا يعني ذلك ادعائي أني قوي، لكنّي أعرف أن ماضيّ لم يكن بالسهل. فاليتُم وتحمّل مسؤولية أسرة بعمر التسع سنوات كان أمراً صعباً لكن ليس مستحيلاً. دراستي في أمريكا لم تكن نزهة إذ كنت المختلف فكرياً بين الجميع. ومع أني تقبلت الجميع، فلم أكن مقبولاً لدى الجميع، مما حدا بي إلى اعتزالي كافة الطلبة العرب في أعوام دراستي الأخيرة وحصر صداقتي بالطلبة الهنود. فهم أقل مشاكل وأكثر جدية في الدراسة وأكثر اطلاعاً وثقافةً. واعتزالي لا يعني خلافاً شخصياً مع أحد، فكما أسلفت، اختلافي مع الآخر خلافٌ فكري لا أكثر ولا أقل. ومن وقت إلى آخر، وكلما سنحت الفرصة أو تطابق حدث مع تجربة عشتها، دونت تلك التجارب في مقالاتي.

ومن تلك المقالات والتي نُشرت في سوالفي الجزء الأول، مقال «شيخ بلا عمامة»،

والتي أبّنت فيها صديقي الشيخ حميد أشكناني وذكرت فيها هوايتي بالتصوير السينمائي. فقد كنت مولعاً بالتصوير السينمائي منذ الصغر وكانت الأفلام ٨ مم ملونة من دون صوت، وكان يشاركني تلك الهواية بوحسين رحمه الله. وذكرت في مقال «كريسماس» رحلتنا ومعاناتنا من (كاربنديل) إلى (مارشل تاون) في آيوا، وكيف قدمت الكنيسة والأهالي هناك يد العون لمساعدتنا، لكن لم أذكر قصة سيارتي الدودج الصفراء. وطالما قاعدين نسولف خلوني أقول لكم هذي السالفة. فلدى وصولنا (كاربنديل) لم نكن بحاجة إلى سيارة، فقد سكنّا في سكن الطلبة وأشارك شاب أمريكي الغرفة، وطبعاً الحمامات عامة وتعال فهمهم سالفة الوضوء والصلاة، لكن الصراحة الكل تقبل التزامنا بديننا الحنيف. لكن في (مارشل تاون) الوضع تغير، فهي قرية صغيرة وسط سهول مزارع الذرة، وبدون سيارة ما لك أمل تتنقل هناك. فشراء سيارة أمر أساسي بس المشكلة الجيب فاضي، وكل اللي عندي ٥٠٠ دولار وأصلاً راتبنا الشهري من السفارة ٤٥٠ دولار، يعني حده يكفي للمأكل والمسكن والكتب. وأي سيارة مستعملة تمشي الحال سعرها ٢٠٠٠ دولار، فاتصلت على الوالدة وطلبت المبلغ الناقص وجاء الرد بالرفض. طبعاً بالنسبة لها الموضوع مو فلوس لكن الخوف عليّ من القيادة هناك، وتقول لي خذ تكسي أحسن لك. وشلون أفهمها آنا وين وشلون وضع الجو والمواصلات، الحجية تحسبني في لندن! المهم طبّقت مبدأ «مد رجولك على قد لحافك» ولقيت سيارة دودج صفره موديل ١٩٦٤ شريتها بمبلغ ٣٠٠ دولار ومشّت الحال معاي إلى حين عودتي بالصيف للكويت. طبعاً الوالدة عند موقفها ما غيرته، فاضطريت للجوء إلى دائرة الأيتام الوصية على أموالي كوني قاصر في ذلك الوقت، وقابلت مديرهم حينها السيد هزاع الحسيان وبلغني أن تعليمات الإدارة تقضي بعدم صرف مبالغ لشراء سيارات للقصر تحت رعايتهم، لكنه قال أنا أعرفك زين ومن وفاة والدك كنت تجينا كل شهر تاخذ مصروف اخوانك وأنا أثق بك وراح استثنيك من القرار، وصرف لي ١٤٥٠ دينار. طبعاً إلى الآن ما عرفت شلون وليش وعلى أي أساس

حدد هذا المبلغ، لكن ما جادلت وقلت الحمد لله إنها انحلت وشريت سيارة جديدة وإن كانت غير كاملة المواصفات، يعني ما كان فيها مسجل كاسيت بس راديو وظلت معاي طوال فترة دراستي، بس هل هذا كان حال كل الطلبة؟ الجواب لا. كان معانا طلبة أهلهم موسورين، وشوف اللمبرغيني والمرسيدس وغيرها والله يهنيهم، بس المشكلة عند الطلبة اللي أهلهم على قد حالهم ويغرقونهم بالدين وسؤال الناس بس علشان يكشخون.

مثل هؤلاء الناس ما يخافون الله ولا يحسبون حساب لأهلهم التقاة وما يعانون من ذل لتوفير مبالغ لهم ليصرفوها على كلام فاضي. وهنا أكرر المثل وأنصح به الكل وسوف أعيده وأكرره بكتاباتي لما به من حكمة: « مدوا رجولكم على قد لحافكم ».

حكمة ثانية آمنت بها وطبقتها وما زلت، ألا وهي «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.» والقصد أن في رحلة الحياة يحتاج الإنسان فرصة من الغير، أو الغير يحتاج فرصة منه، وخلونا نشوف شلون. فالقصة بدأت صيف عام ١٩٧٦، ولا أخفي سراً إن قلت إني أجيد المحادثة والقراءة ولا أجيد الكتابة باللغة الانجليزية مما جعلني أتفوق في المواد العلمية والمحاسبية أكثر من تلك التي تتطلب الحفظ والكتابة. لكن لا بد وستواجه مواد دراسية تتطلب الكتابة، والحل عندي كان في التحري والبحث عن طريقة المدرس في الامتحانات، فإن كان من النوع الذي يستعمل نظام الخيارات بالاجابة سجلت معاه ، وإذا يستعمل النظام التقليدي تجنبته. مع انه النظام التقليدي أكثر سهولة لإنك تعبر في إجابتك عن فهمك للسؤال وبأسوأ الأحوال تطلع بكم علامة، بينما النظام الآخر إن أخطأت في اختيار الجواب الصحيح فالنتيجة صفر. وحتى لا أطيل فقد سجلت في مادة الاقتصاد وهي مادة مشوقة لكن تعتمد على الكتابة، وعلى حظي كان المدرس جديد وما قدرت أعرف عنه شي فسجلت وعند أول اختبار طلع صاحبنا امتحانه تقليدي، طبعاً ما سويت زين ورحت له أطلب الانسحاب من المادة فاستغرب وقال:

مشاركتك في الفصل لا تعكس نتيجتك. فشرحت له المشكلة وصاحبنا طالعني وقال: تدري أنا أصلي من وين؟ أجبته لا، فقال: أنا من أرمينيا ووجودي هنا في هذه البلاد كان نتيجة مساعدة شخص لا نعرفه أعطانا الفرصة فوصلنا إلى أمريكا، ومن ذاك التاريخ قررت أن أمنح الفرصة لغيري عرفانا لمن منحني إياها. ما فهمت بالضبط قصده حينها، لكنه قرر إعادة الامتحان لي بطريقة الخيارات ونجحت بتفوق، فخلصت روحي من تلك المادة بفرصة منحني إياها غريب لا معرفة لي به ولا مصلحة. ومن ذاك التاريخ وكلما كان بيدي استطاعة لمساعدة الغير لا أتردد للحظة، وانعكس ذلك على عملي في المصرف. فصنّفت العملاء المتعثرين بين من هو نصّاب ومن هو متعثر، فكنت أمد يد العون والمساعدة لمن هو متعثر، وبنفس الوقت تجد الصلابة والشدة اتجاه مدعي التعثر من أثرياء ومتسلقين.

والدتي الله يحفظها دايماً تردد وتقول كلما رأتني أتذمر من شيء، «احمد ربك والله لا يغير علينا، ولا تنسى ترى النعمة زوالة ودوامها يحتاج حمد وشكر.» تلك الكلمات مغروسة في أعماق نفسي وأضحت منارة تضيء لي درب الحياة، وكنت وما زلت أكررها، لكنها أحياناً لا تأخذ وقعاً إيجابياً لدى سامعها. وفي أيام شبابي سمعت نكتة سخيفة من أحد الأصدقاء، ولأن من طبيعتي تحليل كل كلمة فقد وقفت عندها من زاويتين: الأولى إنسانية والثانية تعبيرية. ولو أني أراها نكتة تخرج نوعاً ما عن اللياقة الأدبية فقد أخذت أكررها على أبنائي والآن على أحفادي كلما طلب أحدهم أمراً بالنهاية فيه مضرته، وكتبت مقالة تحت عنوان «الصعيدي» لكني لم أنشرها خوفاً من أن تؤخذ على غير معناها خصوصاً وأن المقال محدد بعدد كلمات قليلة والموضوع متشعب، وقد أرفقتها في كتاب سوالفي (الجزء الأول). ومن باب السوالف خلوني أقول هذي القصة، أو بالأحرى النكتة، واللي تقول انه في صعيدي ماشي على البحر فاضي وبصحة وما عنده أي مشكلة أو هم، لكن الفاضي يعمل قاضي كما يقال بعامية أهل مصر، فوجد صاحبنا درنفيس على الأرض، والدرنفيس لمن لا يعلم معناه بعاميتنا في الكويت، هو مفك

البراغي . فصاحبنا الصعيدي التقط الدرنفيس وما عرف شنو يسوي فيه فوضعه داخل سرته وأخذ يفره إلى أن سقط نصفه العلوي عن السفلي. طبعاً وكما أسلفت هي نكتة بايخة ، لكن أبدأ مع الزاوية الإنسانية في تحليل النكتة. فهذا الصعيدي ، هذا الإنسان اللطيف الأمين المجتهد الطيب، لماذا دائماً وأبداً تضرب به النكت السخيفة؟ بل تعدت الصورة النمطية المجحفة إلى المسرح والسينما، وأغلبيتنا شاهد مسرحية «الصعايدة وصلوا». يا جماعة الصعايدة هم أهل العلم وهم الأطباء والمدرسون وهم العمال والفلاحون وكذلك القادة: فجمال عبدالناصر صعيدي، وطه حسين صعيدي، والشيخ متولي الشعراوي صعيدي، رحمهم الله جميعاً. فهؤلاء الطيبون لا يستحقون منا إلا كلمة شكراً، ويكفي صبرهم على ظلم العرب وتفكههم الظالم عليهم. لكن وللأسف فقد أصبح التنكيت على الصعيدي من التراث اللي ما يزعل أحد. أما الزاوية الثانية فهي فعلاً تعبيرية، فلما أجهد بمحاولة إفهام أحد بعدم الولوج في عمل تندم عليه، مثل اللي الله منعم عليها بصحة تروح تسوي عملية تجميل تدفع حياتها ثمناً لها، ولما أتعب بالشرح لشخص واقول له احمد ربك على النعمة اللي انت فيها وماكو فايدة، تجدني تلقائياً أستعمل تلك النكتة ، مع السموحة من كل الصعايدة فهم أطيب ناس، وكذلك من القراء إن وجدوا بالتعبير قلة لياقة.

خلونا من الصعيدي ولنتكلم عن الباكستاني، فأيضاً لي حكمة ومقولة معه أستعملها دائماً في حياتي وتعكس أساس للوسطية والتعايش. وهذي السالفة بدأت من سنوات لدى مشاهدتي فيلم وثائقي عن انفصال باكستان عن الهند، وكما أسلفت فقد كانت لي علاقة زمالة مع الطلبة الباكستانيين وكذلك الهنود إبان دراستي، فاستهواني ذلك الفيلم كونه يجيب على الكثير من تساؤلاتي عن خلاف هؤلاء المزمن. المهم أبطال انقسام تلك الدولة تترجم بأشعار محمد إقبال وبسياسة محمد جناح والأخير هو من قاد هذا الانقسام السياسي وأعلن قيام دولة باكستان وكان مفاوض صعب ويرفض كل ما يطرح عليه الانجليز، لكن

وبنهاية المطاف قال كلمته الشهيرة: لا أوافق على هذا الحل لكني أقبله. (I don't agree, but I accept)

القصد من كلامه أن الحل غير منصف، لكني وللمصلحة العامة أقبل. وهنا يجب أن نلاحظ بأننا في هذه الدنيا نقف عند مفترق طرق ويجب علينا أن نأخذ قرار على أمر وقد لا يكون الأنسب أو الأعدل أو حتى المشرف. لكن الوضع والظروف تفرض عليك القبول والتعايش معه حتى وإن لم ترض به وتوافق عليه لأن ذلك الأمر أمر الله وليس لك دالة عليه. وأعطي مثل للتوضيح: لو كان عندك ولد ما يصلي وانت تعبت معاه من صغره وأحسنت تربيته لكن لما كبر انحرف، واستنفدت كل الطرق والنصيحة معه، فما أنت بفاعل معه؟ هل تطرده أو تخاصمه، أو تتقبله كما هو وتدعو له، فالله سبحانه وتعالى هو مجيب الدعاء.

ولا شي بعيد عن الله سبحانه وتعالى ولذا علينا أحياناً أن نقبل ما لا نوافق عليه، ونرفع يدنا الى الله ونكثر من الدعاء فهو سبحانه المجيب.

ومن أهم إنجازاتي فيما مضى عليّ من عمر ليس بالتجارة ولا بالعلم، بل أحصرها بالعمل الخيري وبر والديّ ورعاية أبنائي والآن أحفادي. وأحب أساعد الناس بالقدر اللي الله يقدرني عليه، وأكثر ما يحزني الجحود ونكران النعمة وعقوق الوالدين وظلم ذوي القربي، فكما قال الشاعر:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهنّدِ

وأكثر ما يغضبني الحسد والجشع والطمع وأكل حقوق الناس وإهمال الأم لمنزلها وتركها لأبنائها بعهدة الخدم. وكان لي وقفة في إحدى المقالات التي نعيت بها مربية أبناء صديقي «كوني»، وذاك المقال نموذج يجسد وللأسف حال الكثير من الأسر الكويتية لكن ما باليد حيلة، بل أقول كما قال محمد جناح، «لا أوافق ولكن أقبل».

ومن الشعراء يعجبني المتنبي وهو يقول:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً من بنعمائه يتقلب.

حاولت بمقالاتي أن أفيد مجتمعي ووطني وألخص تجاربي بحكمة يستفاد منها، وقمت بتبويب تلك المقالات ليس بتاريخ صدورها ولكن بمضمونها قدر المستطاع.

ورسالة إلى ابنتي ايمان وابني عثمان وابني أحمد وإلى أحفادي: عملت لكم بقدر ما رب العالمين وفقني إلى عمله، والآن لم يبق لي سوى الدعاء لكم بالهداية والسعادة وراحة البال. وإلى والدي أقول: رحمك الله رحلتَ مبكراً لكني رأيتك وسمعتك من إرثك الخيري الذي تركت، وأنا على العهد باق أحقق لك وصيتك كما أمرت. وإلى والدتي أقول شكراً جزيلاً والله يديم عليك الصحة والعافية وطول العمر. وإلى عائلتي أقول سامحوني إن قصرت. وإلى وطني وطن النهار سلمت للمجد. ولأهل الكويت الله يهديكم وحافظوا على جوهرتكم. ولاخواننا المقيمين عرباً وأجانب شكراً ماقصرتوا.

وإلى كل جندي مجهول في حياتي كل المحبة والتقدير.

م. عدنان عبدالله العثمان